ـــ وهل ناموا .. ودخلت ؟

● حدث ذلك في وقت لاحق . لم يعد البكاء لائقا بمن هم في مثل سني . كنت اختبر قدرتي على مواجهة الطفل الذي تركته هنا في السابعة من العمر . صار الشوك اطول مني ومنه فضعنا معا . لم نعد نعرف أينا سيعثر على الآخر . ولكنني لم أر، من قبل، عصافير بمثل هذه الالوان الخضراء والزرقاء . جرحتني شوكة حادة ففرحت لانها نقطة الوصول . كنت غارقا في الاحساس بالحج ، ولكن لم أجد الكعبة . من أعطى الارض هذه الوحشية الا الهجر ؟. كبرت اشجار الصبار التي رمى الانجليز أبي فيها وقطعوها عليه بالفؤوس، فأخرج الطبيب من جلده مائة شوكة غير التي اختفت في اللحم . من اكثر حظا يا ابي ؟ ذاك الذي أكل الشوك وواصل تربية الارض ، ام ذاك الذي جاء الى الارض فلم يجد الا الشوك ؟. وهذا الراعي الصغير الذي ادهشته تحيتي : من أين أنت ؟ من اليمن ؟ أخبرته انني من هذه القرية ، فظنني رومانيا لانه يعتقد أن هذه الاطلال آثار قرية رومانية . « واذا رحلنا الى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعودين عليه ، مثل الافاعي الكبيرة ، سأستخدم اهل البلاد ـــ قبل أن اعطيهم اعمالا في البلدان المجاورة ـــ ليقضوا على مثل هذه الحيوانات وسأعطي جوائز كبيرة لمن يأتي بجلد الافاعي وبيضها » هكذا قال هرتسل .. ولعل هذا الراعي القادم من اليمن يحسبني أبحث عن أفعى .

واصلت طريق الشوك والحجارة القديمة بحثا عن الطفل الذي تركتـــه هنا . لم أجد شجرة التوت التي كان يتسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها . لا شيء .. لا شيء الا هيكل كنيسة ضاع منها الجرس . دخلت الكنيسة فكانت الابقار تجترني بكسل . بعد ربع قرن ستدق اجراس الكنائس اعلانا عن موت العدالة في فلسطين بعدما انفجرت مأساة كفربرعم . تأخرت .. تأخرت كثيرا . وليس لهذه الكنيسة جرس يعلن شيئا . ما عاد بوسعي ان ارضى بالاطلال تجسيدا للحلم ، لان انتمائي لم يعد غريزيا .. صار أكثر وعيا ، وصار مضمون الحلم ـــ لا انفجاره ـــ هو قضيتي .

ـــ لم تقل لي لماذا خرجتم . لماذا لم تصلوا الى هذه القناعات الا بعد هذه الخسارة ؟

● أبي يقول انهم لم يفهموا ماذا يحدث . كـــانت معركة عابرة مضمونة النتيجة كمـــا تصوروا . كان الخروج من القرى تخليصا للجسد من الموت دون أن يقابله معنى التنازل عن الارض . لم تكن فكرة الوطن تحتاج ـــ على ما يبدو ـــ الى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط . لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين ، ولم تكن الـــدعوة الى البقاء ـــ على ما يبدو ـــ جزءا من المعركة لانها لم تكن محددة القوى والابعاد . هل يعني ذلك أن الحس الوطني كان رديئا ؟. كلا . بدليل ان الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء انفسهم وبدوافع وطنية خالصة . ولكن التنظيم كان هو الرديء . وكان الانطباع الشائع ـــ أو الخديعة اذا شئت ـــ يقول ان الخروج مؤقت ، لايام معدودة . فلمـــاذا بموت الاطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني اذا كـــان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معا ؟. ان الاسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حس الانتماء الى الوطن والافتقار الى الجـــدارة بوطن تخلـــوا عنه بسهولة . والاسرائيليون لا يخدعون الا أنفسهـــم حين يصدقون ادعاءهـــم ، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت ببنادقهم وخناجرهم التـــي أضافت سببا قويا لدفع العرب الى الخروج . ووضعوا أمامهم الاختيار التالي : اما الموت ، واما النزوح لعدة أيـــام . وان تفريغ فلسطين من العرب لم يكن اجراء طارئا استدعته ظروف الحرب ، بل كـــان خطة ثابتة في استراتيجية العمـــل الصهيوني قبل انشاء اسرائيـــل ، وخلال الحرب ، وبعدها . وقد نفذوها بالعنف المسلح ، ووجدوا فتوى دينية لها في مثال يهوشع بن نون وفي ان « يوم الرب هو يوم ارهاب » . ووجدوا فتوى سياسية لها في أمثلة تطبيقاتهم ،